العالم مستوٍ
موجز تاريخ القرن الحادي والعشرين(*)

B منيـــــــر الرفـــــــاعيb

مؤلف الكتاب هو توماس فريدمان كاتب (زاوية) الشؤون الخارجية في صحيفة نيويورك تايمز وأحد أكثر الكتاب والصحفيين الأميركيين شهرة في العالم العربي. عمل فريدمان مراسلاً لصحف أميركية في بيروت والقدس، وتعلم العربية في القاهرة، وحصل على الماجستير في دراسات الشرق الأوسط من جامعة أكسفورد. تترجم مقالاته وتنشر أسبوعيا في كثير من الصحف والمواقع الإلكترونية العربية. ويعدُّ كتاب فريدمان الأخير «العالم مستوٍ» **The World Is Flat** امتداداً لكتابيه السابقين «سيارة لكزس وشجرة الزيتون» (١٩٩٩) و«تطلعات ومواقف: العالم في عصر الإرهاب» (٢٠٠٢) في الاهتمام بقضية العولمة والتحولات التي يشهدها العالم.

يتناول فريدمان في كتابه هذا أبعاد العالم الجديد الذي يتشكل على نحو مستوٍ فارضاً طريقة جديدة في التفكير مختلفة عما كانت عليه في الماضي. فلم يعد مجال المنافسة مقتصراً على البلدان المتقدمة، بل اتسع ليشمل البلدان الصغيرة أيضاً التي باتت الآن قادرة على دخول حيز المنافسة واللعب مع الكبار، بل والتغلب عليهم، إذا ما أحسنت استخدام أدوات هذا العالم المستوي.

لعل أول ما يلفت القارئ هي العبارة المجازية التي استخدمها عنوانا للكتاب: «العالم مستوٍ: موجز تاريخ القرن الحادي والعشرين »، فكلمة مستو هي المقابل لكلمة كروي، إلا أنَّ فريدمان يقصد بالتسوية تقلص المسافات، وزيادة الاتصال، وحرية أكبر في حركة الأفراد والبضائع. كما

(*) كتاب العالم مستوٍ ــ موجز تاريخ القرن الحادي والعشرين. تأليف: توماس فريدمان، ترجمة: حسام الدين خضور، ٢٠٠٦.

أنه يطلق حكماً مسبقاً على تاريخ القرن الحالي، الذي بدأ تواً، كنوع من استشراف المستقبل واستخدام العبارات المثيرة.

مراحل العولمة:

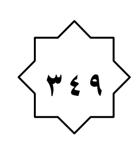
يرى فريدمان أن العولمة مرَّت بمراحل ثلاث كبرى، هي:

المرحلة الأولى: بدءاً من العام ١٤٩٢، عندما أبحر كولومبوس، وفتح التجارة بين العالمين القديم والجديد، وحتى العام ١٨٠٠: وقد تقلص العالم في هذه المرحلة من حجمه الكبير إلى حجم متوسط. وكانت القوة البدنية، وقوة الأحصنة وطاقة الرياح، وفيما بعد طاقة البخار العامل الرئيسي في التغيير، والقوة الفعالة التي تدفع عملية الاندماج العالمي. وفي هذه المرحلة كانت الدول والحكومات هي القوة المحركة (يدفعها غالباً الدين أو النزعة القومية أو كلاهما)، هي التي مهدت السبيل لهدم الجدران وربط العالم ودفع الاندماج العالمي.

المرحلة الثانية: من العام ١٨٠٠م ـ ٢٠٠٠م تقريباً: وقد اعترضها الكساد الكبير، والحربان العالميتان الأولى والثانية، وتقلص العالم في هذه المرحلة العالم من حجمه المتوسط إلى حجم صغير. وكان عامل التغيير الرئيسي في هذه المرحلة والقوة الفعالة التي تدفع الاندماج العالمي هي الشركات المتعددة الجنسيات التي خرجت إلى العالم من أجل الأسواق والعمل، وقد قادتها، في البداية، شركات الأسهم المشتركة الهولندية والانكليزية والثورة الصناعية. وفي النصف الأول من هذه المرحلة، كان انخفاض نفقات المواصلات بفضل المحرك البخاري والسكك الحديدية هو الذي عزز الاندماج العالمي، وفي النصف الثاني من هذه المرحلة انخفضت نفقات الاتصال بفضل انتشار البرق والهاتف والكمبيوتر الشخصي والأقمار الصناعية والكابلات الضوئية والنسخة الأولى من شبكة الانترنت العالمية. وشهدت هذه المرحلة مولد الاقتصاد العالمي ونضجه. وكانت القوى الفعالة في هذه المرحلة هي الاكتشافات الهامة في الأجهزة ـ من السفن البخارية والخطوط الحديدية في البداية إلى الهواتف وأجهزة الكمبيوتر المركزية ذات الطاقة الكبيرة فيما بعد. وفي هذه المرحلة أيضاً بدأت الجدران بالسقوط في كل أنحاء العالم؛ ولكن ثمة حواجز كثيرة لا تزال تعيق الاندماج العالمي. ولنتذكر أنه عندما انتخب كلينتون رئيساً في العام ١٩٩٢ لم يكن أحد باستثناء الحكومة والأكاديميات يملك بريداً الكترونياً.

المرحلة الثالثة: بدأت من العام ٢٠٠٠، وفيها تقلص العالم من حجمه الصغير إلى حجم شديد الصغر. وكانت القوة الفعالة في هذه المرحلة هي قوة الأفراد وقدرتهم على التعاون والتنافس عالمياً. ومما مكن الأفراد والمجموعات من الخروج إلى العالم بسهولة ويسر هي البرامج وكل أنواع التطبيقات الجديدة؛ بالتزامن مع ابتكار الشبكة العالمية ذات الكابلات الضوئية التي جعلتنا جميعاً جيراناً. وتختلف هذه المرحلة عن سابقتيها في أن الأفراد ورجال الأعمال الأوربيين والأميركيين بالدرجة الأولى هم الذين قادوا هذه المرحلة.

كيف أصبح العالم مستوياً؟



يقول المؤلف: «كنت في رحلة إلى الصين والهند ذكّرتني برحلات المستكشفين القدامى: ماجلان وكولومبس وماركو بولو وغيرهم، فبينما عاد كولومبس إلى مليكه فرديناند بحقيقة أن الأرض كروية ... عدت أنا إلى زوجتي قائلاً: يا عزيزتي أظن أن العالم مستوٍ».

عندما تتصل من مدينة نيويورك على مركز خدمة العملاء لتشتكي من فاتورة بطاقتك الائتمانية، قد يكون العميل الذي يتلقى اتصالك في بنغلور في الهند! وقد يسليك ببعض التعليقات عن حالة الطقس في نيويورك أو آخر الأخبار المحلية هناك، دون أن تعلم أنه على بعد آلاف الأميال منك!! نعم، لقد عزمت كثير من الشركات على تصدير أعمالها للخارج، والتعاون مع شركات أخرى للقيام بجزء من أعمالها. لكن ذلك لم يكن ممكنا قبل عشرة أعوام لأن العالم لم يكن مستوياً في ذلك الوقت. وهذه هي العوامل العشرة التي ساعدت على تسوية العالم:

العوامل العشرة التي سوَّت العالم

عامل التسوية الأول: سقوط جدار برلين ١٩٨٩/١١/٩:

كان جدار برلين يعيق رؤيتنا، وقدرتنا على التفكير بالعالم كسوق واحدة، وعالم واحد، وجماعة واحدة. وأطلق سقوطه طاقات هائلة كانت مكبوتة لدى مئات ملايين الناس في أماكن مثل الهند والصين والبرازيل والإمبراطورية السوفييتية السابقة. لقد مهد سقوط جدار برلين الطريق أمام كثير من الشعوب ليطلع كل منها على مصادر معرفة الآخر، وتبني معايير مشتركة ـ كمعايير إدارة الاقتصاد، وإجراء المحاسبة المالية، وعمل المصارف، وصناعة الكمبيوترات الشخصية، وإعداد الأبحاث الاقتصادية. وفي أوربا، فتح سقوط الجدار الطريق لتوسيع الاتحاد الأوربي من ١٥ بلداً إلى ٢٥ بلداً، وحلول اليورو عملة مشتركة في منطقة اقتصادية واحدة كانت مقسمة ذات يوم بستار حديدي.

عامل التسوية الثاني: متصفح الانترنت نتسكاب Netscape ١٩٩٥/٨/٩

إنه تاريخ إشهار شركة نتسكاب **Netscape** وخروج أول متصفح للانترنت للعالم **(Netscape (Communicator**. ابتكرت هذا المتصفح شركة صغيرة مبتدئة في منطقة ماونتن فيو في كاليفورنيا اسمها (نتسكاب)؛ التي أشهرت بتاريخ ١٩٩٥/٨/٩

وبعد هذا التاريخ لم يعد العالم هو نفسه. فقد أصبح بإمكان الطالب والأستاذ وحتى «الجدة» الحصول على أية معلومة بطريقة سهلة، كما صار بإمكان أي إنسان التواصل مع أي إنسان آخر والتفاعل معه أينما وجد في هذا العالم، بوساطة الكمبيوتر الشخصي، عبر البريد الالكتروني وصفحات الويب.

لقد كان هذا العامل هو الأساس الذي استند إليه العامل الثاني الذي ساهم في تسوية العالم.

عامل التسوية الثالث: برامج تدفق العمل

وهي البرمجيات التي تسمح بتدفق الأعمال إلكترونياً (**Work Flow**)عبر قيام أشخاص في أماكن متباعدة بالعمل معا لإنهاء سلسلة من الأعمال.

لقد أدَّت صناعة البرامج إلى أتمتة كثير من الصناعات،وأصبح من الممكن لشخص أن ينهي جزءًا من العمل في الهند ثم يرسله إلى الصين لإتمام جزء آخر، وبعد ذلك إلى أوربا حيث المحطة النهائية.

وبرامج تدفق العمل هذه تمكن الشخص من أن يؤسس مكاتب عالمية، غير محدودة بحدود مكتبه أو وطنه، وأن يصل إلى الموهوبين في مكاتبهم في أنحاء مختلفة من العالم، فيصبحون قادرين على إنهاء المهام التي توكلها إليهم في وقت محدد.

وهكذ وجد الناس أنفسهم في عالم بدأ يتسوى، وباتوا قادرين على التعاون لإنجاز أنواع مختلفة من العمل ويتشاركون في أنواع مختلفة من المعرفة في أي مكان في العالم.

عامل التسوية الرابع: المصادر المفتوحة

البرامج المفتوحة هي برامج يكتبها أفراد ومجموعات على الإنترنت لا يعرف أحدهم الآخر، في أغلب الأحيان، وأثبتت هذه البرامج قدرة تنافسية حتى مع أكبر شركات التطبيقات مثل **IBM**.

وهذا عامل تسوية هام لأنه يتيح، مجاناً، كثيراً من البرامج والموسوعات وغير ذلك، لملايين من الناس في شتى أنحاء العالم.

والهدف الأساسي من ذلك، هو اجتذاب أكبر عدد من الأشخاص لكتابة برامج الكمبيوتر وتطويرها وتوزيعها دون مقابل، انطلاقاً من إيمان راسخ أن هذا سيحرر الأفراد من قبضة الشركات العالمية الكبرى.

عامل التسوية الخامس: العقود الفرعية ـ تخلي شركة ما عن جزء من عملها لشركة أخرى

«حين تكون الأعمال روتينية ولا تتطلب قدرا من الابتكار والإبداع، فدعنا نقوم بها بدلاً عنك»: هذه هي رسالة الهند ودول أخرى إلى العالم. فاستطاعت الشركات الكبرى بهذه الطريقة التخلص من الأعمال.الروتينية لصالح العمالة الأرخص ـ في أي مكان في العالم ـ والتفرغ للابتكار والإبداع في مجال عملها.

عامل التسوية السادس: نقل العمل من بلد إلى آخر بسهولة

إن انضمام الصين إلى منظمة التجارة العالمية أعطى دفعاً كبيراً لشكل آخر من التعاون وهو العمل في الخارج. والعمل في الخارج يعني أن تقوم شركة ما بنقل أحد مصانعها الذي يعمل في الولايات المتحدة، مثلاً، إلى الصين. وهناك ينتج السلعة نفسها بالطريقة نفسها، ولكن بأجور أرخص وضرائب ونفقات عناية أقل، وبالتالي بسعر أرخص. وهكذا، فإن انضمام الصين إلى منظمة التجارة العالمية أدى إلى نهضة صناعية عملاقة، وساهم إلى حد كبير في تسوية العالم.

عامل التسوية السابع: خطوط الإمدادات

لقد أبدعت بعض الشركات في جعل خط الإمدادات من المصنعين، إلى المستودعات، إلى أماكن التسوق إلى الرفِّ الذي ستعرض عليه السلعة أكثر مرونة، وأسرع وأرخص تكلفة؛ مستخدمة الأشعة الحمراء ,وغيرها. فعندما تشتري سلعة من أي رفّ سيعلم بها المصنع فيقوم بتصنيع سلعة أخرى لترسل على خط الإمدادات الإلكتروني لتكون جاهزة للزبائن الآخرين. ويضرب الكاتب مثالاً لذلك سلسلة **Wal-Mart** أكبر سلسلة للتسوق في العالم

عامل التسوية الثامن: إدارة عمل فرعي في شركة

شركة يو بي إس **UPS** وشركة فيديكس **FedEX**، ليستا مجرد شركتين لنقل الطرود، بل تقومان بالتخطيط لتدفق البضائع والمواد ومراقبتها، وأكثر من ذلك إنهما من العوامل التي سوَّت العالم، فقد ساهمتا في جعل نقل البضائع والخدمات حول العالم أكثر فعالية وسرعة، وساعدت على تسوية الحواجز الجمركية وخلقت انسجاماً في التجارة، ودفعت الناس أكثر فأكثر إلى تبني القواعد نفسها فيما يتعلق بنقل السلع.

فعندما تكون لديك مشكلة في حاسوبك المحمول، ستطلب منك شركة توشيبا إيداعه عند أقرب فرع لشركة النقل **UPS**، وهي، بدورها،ستشحنه إلى توشيبا لتصلحه، وعندما سيكون جاهزا، سيرسل لك مرة أخرى لاستلامه. لكن ما تعرفه هو أن لدى شركة **UPS** عمالة مرخصة من شركة توشيبا تقوم هي بإصلاح الأجهزة في ورشتها دون الحاجة لإرسالها إلى مركز توشيبا. هذه فقط هي إحدى الخدمات التي توفرها شركة **UPS** لتجعل من شركة صغيرة تتحرك وعندها إمكانيات أي شركة ضخمة عالمياً.

وهكذا تقوم الشركات العملاقة بدعم الشركات الصغيرة وتطويرها وتحويلها إلى شركات عالمية كما حدث مع شركتي النقل **ups** و.**FedEx** سالفتي الذكر.

عامل التسوية التاسع: الحصول على المعلومات بوساطة برامج بحث Google, Yahoo, MSN في الشبكة العالمية

توفر محركات البحث هذه المعلومات في شتى المجالات، وفي أي مكان، وتجيب عن أي سؤال وبتقنيات سلكية ولاسلكية. كما أنها استطاعت بناء أنظمة تمكن زبائنها من اختيار ما يريدون، ثم الاستجابة بسرعة خاطفة إلى تلبية اختياراتهم.

عامل التسوية العاشر: المحفزات

المحفزات لكل هذه العوامل هي التحول إلى الرقمية. فالصور والأصوات، والأفلام، والمعلومات كلها أصبحت رقمية؛ سهلت العوامل المذكورة سالفا. بالإضافة إلى الابتكارات اللاسلكية التي توفر الوصول إلى أي معلومة أو القيام بأي عملية بنكية، أو الاتصال بأي شخص من على متن طائرة، أو من تحت الأرض، أو من أعلى برج.

العرب والمسلمون:

بقي أن أشير إلى أن المؤلف تطرق إلى الشرق الأوسط، والعرب، والمسلمين في معرض الحديث عن السلبيات، والتأخر عن ركب العولمة: فالعرب الخاسرون في عصر العولمة

والبعيدون عن اقتصاد السوق والتجارة الحرة والديمقراطية السياسية لا يستطيعون تغيير وجه العالم أو المساهمة في تشكيل مستقبله.

«إن العالم الإسلامي شاسع، متنوع الحضارة ... ولكنَّ الغضب والإحباط يشتد في العالم الإسلامي بشكل عام، والعالم العربي الإسلامي بشكل خاص، وأكثر ما يثير الشباب هو النزاع العربي (الإسرائيلي) الملتهب، والاحتلال (الإسرائيلي) لأرض فلسطين والقدس الشرقية ـ وهذا ضيم هيمن على خيال العرب والمسلمين، وأفسد العلاقات مع أميركا والغرب منذ أمد بعيد.». ثم يقول: «أنا مقتنع أن معظم الطبقة الوسطى من العرب والمسلمين لم تحتفل بقتل ثلاثة آلاف أميركي بريء في ٩/١١. لم يبتهج أصدقائي من العرب والمسلمين احتفلوا بفكرة توجيه لكمة إلى وجه أميركا ـ واستحسنوا الرجال الذين قاموا بها في سرهم. وكانوا سعداء برؤية بعضهم يُلحق الهوان بالشعب والبلد الذين شعروا أنه يذلهم ويدعم ما رأوه أنه الظلم في عالمهم ـ سواء ساندت أميركا الملوك والطغاة العرب الذين يصدرون النفط إليها أو ساندت (إسرائيل).» ويضيف: «لقد نشؤوا (أي الشباب العربي) معتقدين أن الإسلام هو التعبير الأكثر كمالاً ودقة لرسالة التوحيد وأن النبي محمداً (ص) هو رسول الله الأخير والأكثر كمالاً؛ هذا ليس نقداً، هذه هوية الإسلام الذاتية، ومع ذلك، في عالم مستوٍ يمكن لهؤلاء الشباب، لا سيما أولئك الذين يعيشون في أوربة، أن ينظروا حولهم ويروا أن العالم العربي ـ الإسلامي في حالات كثيرة تخلف عن بقية سكان الكوكب، فهو لا يعيش في رفاهية أو ديمقراطية مثل بقية الحضارات».

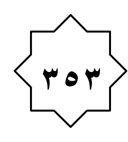
القيم الأميركية:

يقول المؤلف: إننا بحاجة إلى التذكر بأن هذه القيم هي الأساس الحقيقي لقوتنا. ونحن بحاجة إلى إدراك أن أعداءنا لا يستطيعون إلحاق الهزيمة بنا أبداً. نحن فقط الذين نستطيع أن نهزم أنفسنا بالتخلي عن ميثاقنا الذي التزمنا به زمناً طويلاً جداً.

أعتقد أن التاريخ سيسجل بوضوح أن الرئيس بوش استغل دون خجل مشاعر الناس إزاء ٩/١١ لأغراض سياسية. فقد استخدم تلك المشاعر ليتبنى أجندة أقصى اليمين في الحزب الجمهوري المحلية في الضرائب والبيئة والمسائل الاجتماعية لتمرير أجندة ٩/١٠ ـ وهي أجندة لم تحظ بتأييد شعبي ـ ودفعها إلى عالم ٩/١٢. وبعمله ذلك، لم يدق السيد بوش إسفيناً بين الأميركيين، وبين الأميركيين والعالم، بل دق إسفيناً بين أميركا وتاريخها وهويتها. لقد حولت إدارته الولايات المتحدة إلى «الولايات المتحدة في محاربة الإرهاب». وهذا هو السبب الحقيقي، في رأيي، لكراهية أناس كثيرين في العالم للرئيس بوش بشدة. إنهم يشعرون أنه انتزع منهم شيئاً عزيزاً عليهم جداً ـ أميركا التي تصدر الأمل وليس الخوف.

كما يقدم الكتاب تصوراً عن الشركات عابرة القارات وسيطرتها على كثير من الأمور، بينما «ثمة جانب كبير من العالم يمثل الأغلبية لا يشارك في هذه التحولات الكبرى الجارية، بل هو مشغول بالبقاء على قيد الحياة، ويواجه لأجل ذلك المرض والفقر والجهل والتخلف والحروب والصراعات ».

إنه كتاب مشوق، فيه استشراف للمستقبل، غزير المعلومات،بذل الكاتب جهداً واضحاً لإنجازه، كما بذل الأستاذ حسام الدين خضور جهداً كبيراً في ترجمته للقارئ العربي.



_J6